دور العقل في فهم الدين

الاستاذ قاسم الجوادي*

التعريب: السيد محمد جعفر النوري**

ان حجة الانسان الاولى هي الفكر الذي اكرمه الله بعائدته، فهو على ضوئه وبميزانه يستخبر حقائق الكلام الذي يسمعه، ويحاكمه باصوله، فيقبل منه ما استصوبه حكمه، ويرفض ما خف وزنه في معياره، وهذه الحجة الذاتية واصبة الحضور والتأثير في الانسان كقطب الرحى بلا انقطاع، ولا تحيد عن دورها المركزي فيه وهو دور الزمام قيد انملة، واذا غابت عنه في مرحلة من مراحل حياته، او لم يعطها حقها من الاهتمام والتعويل تعرضت انسانيته للخسران بحجم ذلك الغياب او عدم الاكتراث.

* استاديار و عضو هيئت علمى جامعة المصطفى صلى الله عليه وآله العالمية، مجتمع آموزش عالى امام خمينى قدس سره، قم.

** كارشناس ارشد فرق و مذاهب اسلامى، جامعة المصطفى صلى الله عليه وآله العالمية، مجتمع آموزش عالى امام خمينى قدس سره ، قم.

انها هي السر الكامن وراء تفضيل الانسان على سائر الموجودات، وبها تكون حجة فوق كل الحجج، وهو بدونها في دوامة اللاتكليف سواء على صعيد الشرائع السماوية او الانظمة الوضعية كهباءة سابحة في الفضاء بلا قرار. وان انضواء الانسان تحت لواء التوحيد والرسالة والقرآن لا يكون الا بالزامات تلك الحجة وبراهينها.

و يأتي بعد دور هذه الحجة الاساسية دور الحجج الاخرى التي تلازم هذا المخلوق العاقل المستخلف المكرم بالمسؤولية ما كر عليه الجديدان، يفيد منها رشده وسداده، ويغنم بها خيره وصلاحه، ويقع في راسها حسب وجهة نظر الاسلام ـ القرآن الكريم ـ الذي وصفه النبي الاكرم بالثقل الاكبر، وهو احد الثقلين المتلازمين اللذين لا ينفك احدهما عن الاخر حتى يردا عليه صلى الله عليه وآله يوم القيامة، وهو اضافة الى كونه الاصل المتين المصون، فهو منارة الطريق في زحمة التعارض والتضاد، ومن هنا اطلق الهداة الميامين اوامرهم الرشيده لنا بان لا نقبل ما خالف القرآن، وافهمونا سلام الله عليهم انهم لم يقولوا قط ما يعارض القرآن، وبينوا لنا اننا ملزمون بان ناخذ عنهم ما وافق الكتاب المجيد. هذه وغيرها كلها دليل باهر على حجية القرآن القاطعة التي لا مراء فيها، وكونها سيدة الحجج والاسس الفكرية التي تم الالزام الاكيد بان يعتمدها الانسان المسلم في مساره الرسالي، ويستمسك بعروتها الوثقى في مضلات الفتن ومتاهات الشبهات ما اعتقبت العصور والازمان، ما دام هو اي القرآن لم ينزل لزمان دون زمان، بل لكل المديات المذخورة لعمر البشرية منذ نزوله الى قيام الساعة، ويبقى فيها حيا، طرياً، نابضا بالحلاوة والطلاوة، مفعما بالحياة المتجددة والعطاء المتواصل، ومن هنا يلزمنا بذل الجهود الحثيثة بلا كلل او ملل للوصول الى اقصى درجات الفهم السليم للقرآن، ومن خلال كل السبل والمنافذ الصحيحة التي تعيننا على ادراك المفاهيم القرآنية السامية، والفوز بنيل حقائق الوحي التي اراد لها منزلها ان تكون رائد الهدى، وطريق السداد، ومعراج المسيرة الانسانية الى كمالها في السبحات الغامرة لوحي الله الخالد.

من الطبيعي جدا في هذا الصدد التأكيد على عدم صواب الغفلة عن دور الحضور القلبي، وتاثير الشواهد الوجدانية في فهم المراد القرآني التي يقع الفكر في طليعة الاسباب الواصلة بفيوضها، وكم من فهم قرآني هو في ارقى درجات الاستكناه لخطاب السماء ـ كان مصدره الفؤاد الذي اتخذ من معين الطهارة الباطنية، وتزكية النفس، وسيلته المثلى الى ضالته المنشودة وهي الورود على ساحل الحقيقة القرآنية. على ان هذه الاهمية البالغة للمعرفة القلبية لا يمكنها ابدا ان تكون ملزمة لما سوى من حباه الله بها، ولا يحق له ان يسوق الاخرين الى التزام ما التزمه من الفهم القرآني بدواعيها

والطافها، لان الانسان مجبول على ان لا يصدق الا ما استوعبه عقله، ووثق به فكره، ومن هنا تكون منطقية تلك المعادلة التي تقول ان درجة القبول للافكار منوطة بمستوى فهمها واستيعابها، وعلى هذا لا يصح من الانسان ان يرد كلاما بلا دليل مقنع، ولا ان يقبل كلاما بلا سلطان بين من البرهان، وهو كما يقع تحت طائلة المساءلة والمؤاخذة عند اعراضه عن قول بلا حجة منطقية، يكون معرّضا لتلك المساءلة والمواخذة عند قبوله ذلك القول بغير الظهير المكين من الدليل المتين، ولهذه الاهمية المتميزة لدور الفكر في المسيرة الانسانية ركز القرآن الكريم على ضرورة التزام الانسان منحى العقل والمنطق في تدبر الحقائق وتشخيص المعالم، اليس هو القائل:(انا انزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) (يوسف ٢) والقائل: (انا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون). (الزخرف ٢).

ان الله سبحانه قد حبا هذا الانسان بمكرمة النهى ليفهم بها كل شي حتى القرآن، وتأسيساً على هذا لا معنى لان يتم ربط الفهم القرآني بحقبة زمينة معينة دون اخرى، ليكون اطلاق فهم عصر معين او فرد محدد من غير المعصومين حجة على الاخرين ما دام لا يمتلك دليلاً قاطعاً، ولا برهانا ساطعاً، ولذلك جعل الله سبحانه هلاك الناس ونجاتهم معصوبين بالدليل والبرهان: (ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيّ عن بينة) وقد الزمهم ان لا يتحدثوا ويطرحوا وجهات نظرهم بلا حجة واضحة: (قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين).

وان مما يجب التوجه اليه ما دمنا بصدد قضية الهلاك والنجاة ببينة البرهان كما تؤكد الاية الشريفة هو انه اذا كان القرآن الكريم يعتبرهما تابعين للدليل، وهو يستقبح بشدة اطاعة السادات والكبراء، ويستهجن هذا العمل الشنيع، فان مؤدى ذلك انه لا يجوز التوجس من نقد اي كلام يصدر من الاكابر، ولا يصح قبول كل كلامهم على عواهنه وان كان عاريا عن الدليل الرصين. ان الكلام لا يكون متينا الا حين يكون وثيقا، ولا يكون الكلام حكيما الا حين يكون موسوماً بالاستحكام، وليس الفرد هو الذي يهب الكلام وسام الشأنية، وانما الكلام هو الذي يزين الفرد بشارته وبهائه، واذا اراد الانسان ان يأمن الهلاك فما عليه الا ان يركن الى قبول كلمة الحق السديدة، وان ينأى بنفسه عن ضدها ومن هنا نفهم ان كلام الحق والحكمة ممكن الوجدان في كل مكان، وهو ضالة المؤمن على طول المدى، فاينما وجده اخذه ولو من لسان المنافق.

ان صميم ما تم ذكره فيما سلف يتجلى في ان العقل هو حجة الانسان التي تفضي به حتى الى قبول اصل الاصول وهو التوحيد، وان هناك حجج اخرى قد وضعت في متناول استنارته واستهدائه، اهمها القرآن الكريم الذي يستدعي ادراك عطائه التسديدي بذل منتهى الجد في فهمه

والاحاطة بمراده، مع الاخذ بنظر الاعتبار ان ملاك الحقانية ليس في الكلام التليد، وان ملاك البطلان ليس من نصيب الكلام الطارف.

و لو كانت الجدة علامة البطلان لما كان للتوراة او الانجيل والزبور او القرآن مجال لان تكون مضان لطف الله في هداية عباده، فلا ريب في ان كلا هو جديد زمانه، وان الغابرين لم يفكروا بدلا عنا، ولم يؤدوا وظائفنا العقلية، وانما نحن المسؤولين عن فكرنا ونشاطنا، نفكر بآليات فكرنا، ونعمل على اساس ذلك الفكر لصلاح واقعنا، ولكن هذا لا يعنى اننا يجب ان ننسى او نتغافل ارث الاقدمين، وان عدم نسيانه لا يعني قبوله على كل حال ولو خلا من ميزة البرهان، وعلى هذا تكون وظيفتنا ان نباشر عملية التفكير والتحقيق لانفسنا، ونبذل وسعنا في فهم الحقيقة القرآنية، وثقافة اسلافنا الميامين حولها بوسيلة البصيرة والاستدلال والتدبر المنير.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی